ISSN: 2321-7928

استعراض كتاب:

السير سيّد أحمد خان وإسهامه في الفكر والثقافة والتعليم

- د. غياث الإسلام الصديقي[1]

اسم الكتاب: السير سيّد أحمد خان وإسهامه في الفكر والثقافة والتعليم

اسم المؤلف: الدكتور منظر عالم

عدد الصفحات: 168

الناشر: مكتبة البلاغ للنشر والتوزيع، أبوالفضل إنكليو، جامعة نغر، نيودلهي

سنة النشر: 2020م

تمهيد

السير سيّد أحمد خان (1817-1898م) من عباقرة الهند الذين خلفوا وراءهم بصمات عميقة في الشعب الهندي، وقدّموا خدمات عظيمة في مجال التعليم والثقافة. إنه يتميّز عن غيرهم بأنه بذل كلّ ما في وسعه لرفع مستوى المسلمين الهنود في العلوم العصرية والمعارف الحديثة، وتحمّل المشاق والشدائد في هذا السبيل. ولا شك في أنه كان مخلصًا في هدفه المنشود، وصادقًا في جهوده، فتجسّدت مساعيه المكثفة في صورة جامعة علي كره الإسلامية اليوم على منصة الشهود، واعترف الجميع بدوره المرموق في تعليم الشعب الهندي، وصار يضرب به المثل في هذا الصدد. فالكتاب الذي نعرضه الآن هو محاولة قيمة في تعريف شخصيته وخدماته.

المؤلف في سطور: مؤلّف هذا الكتاب هو الدكتور منظر عالم، عضو هيئة التدريس بقسم

[1] مدرّس ضيف، كلية الطبّ اليونانية التابعة لجامعة دلهي، نيودلهي، الهند

اللغة العربية وآدابها، جامعة بابا غلام شاه بادشاه راجوري، جامو وكشمير، الهند، منذ 2008م. هو من مواليد 13 مايو 1975م، وبعد تلقّي الدراسات البدائية، التحق طالبًا بجامعة الفلاح، بلريا غنج، أعظم كره، أوترابراديش، حيث حصل على شهادة العالمية في عام 1990م، وشهادة الفضيلة في عام 1992م. ثم ارتحل إلى مدينة دلهي وأكمل بكالوريوس الأدب العربي بالجامعة الملية الإسلامية عام 1995م، فالتحق بجامعة جواهر لال نهرو وأكمل فيها الماجستير في الأدب العربي عام 1997م، ودرجة ما قبل الدكتوراه (إيم. فل.) حول الموضوع "الجوانب اللغوية والدينية في كتابات مجلة المنار" عام2000م، وأكمل الدكتوراه حول الموضوع "الإبداعات اللغوية والإصلاحات الدينية والتعليمية لمحمد عبده وسيّد أحمد خان: دراسة مقارنة" عام 2005م.[1]

هدف الكتاب: يهدف المؤلّف بهذا التأليف إلى إبراز شخصية السير سيّد أحمد خان وأهميتها، فيقدم للقارئ دراسة موضوعية لحياته وأعماله التي كانت حافلة بالجد والكد والممارسات والمحاولات، وعلى حد تعبيره: "فيها عبر ومواعظ للمسلمين بصفة خاصة ولكافتهم بصفة عامة". (السير سيد أحمد خان وإسهامه في الفكر والثقافة والتعليم، ص 22)

محتويات الكتاب: يشتمل الكتاب على "تقديم" و"بين يدي الكتاب"، وخمسة أبواب، وقائمة المصادر والمراجع.

تقديم: كتبه أستاذنا البروفيسور عبد الماجد قاضي رئيس قسم اللغة العربية وآدابها بالجامعة الملية الإسلامية، نيودلهي، سابقًا، ويستغرق ذلك ثلاث عشرة صفحة، وهي عبارة عن انطباعات أدبية ورؤى نقدية ومعلومات قيّمة تزيد منها قيمة الكتاب العلمية والموثوقية، وهو يقول في مستهلها: "يعطينا هذا الكتاب القيم فكرة واضحة حول حياة ومآثر علم من أعلام الهند. ذاك العلم الشامخ، الذي امتدت جذور غريسه في أعماق الأرض، وأفرع جذعه شامخًا في الأجواء، وارتفعت أغصانه وأفنانه في

[1] هذه التفاصيل أخذناها من سيرته الذاتية.

السماء، حتى أصبح دوحة فيحاء، بظلالها الوارفة، وثمارها اليانعة، وقطوفها الدانية، للأدنين والأقصين على السواء". (المصدر نفسه، ص7)

وقد أبرز الأستاذ الدكتور ميزات السير سيّد وأهمية شخصيته في المجالات الاجتماعية والسياسية والتعليمية وهو يقول: "عُرف السير سيّد أحمد خان أبًا روحيًا للثقافة الحديثة في الهند، ومؤسسًا لأعرق جامعة عصرية فيها، ومصلحًا اجتماعيًا، من أعمق المصلحين غورًا، وأبعدهم نظرًا، وزعيمًا ذا فراسة دقيقة، وذا مواقف حكيمة في أشد الظروف خطورة وتدهورًا. واعترف به التاريخ حكيمًا لزمانه بلا منازع، بل، وأشاد بها عصاميًا سابقًا لأوانه، إذ أنّ الحقائق التي أدركها في حياته، وكشف القناع عنها في كتاباته وخطاباته، والتي دحظها معاصروه، وعارضوه فيها، بل، وفسقوه وزندقوه من أجلها- باتت أجيال أحفاد أحفادهم تدرك بقناعاتها أنّ سيّد أحمد خان- دون معارضيه الألداء- كان على الحق في مواقفه الاجتماعية والسياسية والتعليمية، وأنه قد استطاع أن ينفذ إلى عمق الموضوعية في تقديره للحقائق، وذلك لفراسته الخارقة في قراءة مجرى الأحداث المستقبلية، وبصيرته النفاذة في تحديد الاتجاه الصحيح لمجالات جهوده". (المصدر نفسه، ص 8)

كما قام الأستاذ بتركيز خاصّ على أفكاره وآرائه إذ يقول: "والكتابة حول شخصية وآثار سيّد أحمد خان ليست بمهمة عادية، إذ أنّ بعض مواقفه من السياسة والاجتماع والتعليم، بالإضافة إلى عديد من آرائه في تأويل النصوص القرآنية، كان مثار جدل واسع في أوساط المحافظين، وهو، والحق يقال، لم ينفلت من نوع من البرمجة الفكرية التلقائية في عديد من مواقفه، جراء تعرضه الطويل والمتتابع لغزو الاستعمار الفكري، وتظافر الدعاية الاستشراقية التي استهدفت بثّ الشبهات وإضعاف ثقة المسلمين بتاريخهم وتراثهم. ولا معصوم إلا من عصمه الله. ورغم خلافنا معه في تلك الآراء نكنّ له الاحترام الذي يستحقه لاجتهاده وإخلاصه للأمة. (المصدر نفسه، ص 17)

بين يدي الكتاب: كتبه المؤلّف في ستّ صفحات، وهو يتحدث عن شخصية السير سيّد أحمد خان، ويتناول ثلاثة جوانب رئيسية من جهوده وأفكاره، وهي: الأدب، والدين والتعليم. كما أشاد بمساعيه المبذولة في نشر الوعي في الشعب الهندي، وأوضح أنه بادئ ذي بدء ألّف سيّد أحمد خان كتبًا قيمة مثل "جلاء القلوب في ذكر المحبوب"، و"راه راست در رد بدعت"، و"كلمة الحق"، وانتقد فيها البدع والخرافات والأوهام التي كانت شائعة ومنتشرة في المجتمع الهندي. وكذلك قام بتفسير القرآن الكريم وأتى فيه بما لم يأت به غيره، وبالرغم من آرائه التي تعتبر نوعًا من الخروج على المبادئ المقرّرة لفهم الدين، لا يمكن التغاضي عن إنجازاته في الرد على أعداء الإسلام وعلى رأسهم "السير وليام ميور" الذي ألّف كتابًا حول حياة النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موجهًا إليه اعتراضات كثيرة ضد أساس الإسلام، فقلق واضطرب السير سيّد أحمد خان من هذا العمل الشنيع، وعقد العزم للرد عليه، ورحل إلى إنجلترا لهذا الغرض، وتجول من مكتبة إلى مكتبة للبحث عن المواد ونجح في الرد عليه في ضوء البراهين القاطعة والأدلة الساطعة. (المصدر نفسه، ص 23)

بعد "بين يدي الكتاب" يبدأ الباب الأول لهذا لكتاب، وهو في خلفية الموضوع، وأوضح فيه المؤلف الأوضاع الاجتماعية والثقافية في القرن التاسع عشر في الهند.

والباب الثاني يقدّم إطلالة على حياة السير سيّد أحمد خان، فألقى ضوءا على ولادته ونشأته، ونسبه من أبيه وأمه، وتعليمه، وتأثير حركة الشاه ولي الله الدهلوي في تكوين شخصيته، كما تعرّض لوظائفه ومناصبه، ووفاته، والأوسمة التي حاز عليها، وآثاره العلمية والأدبية. وكذلك عرض ترجمة حياة للكُتّاب والأدباء المعاصرين له وقائمة لمؤلفاتهم، وهم: ألطاف حسين الحالي (1837-1914م)، والدبتي نذير أحمد (1830-1912م)، والعلامة شبلي النعماني (1858-1914م)، وجراغ علي (1844-1895م).

يناقش الباب الثالث أعماله الأدبية، فأولًا يقدّم نبذة تاريخية عن اللغة الأردية، ويخص

النثر الأردي بالبحث، ويعرض دور السير سيّد أحمد خان في تطوير اللغة الأردية.

والباب الرابع في أفكاره الدينية، فيقدّم المؤلف دراسة لـ"تفسير القرآن هو الهدى والفرقان" ثم يعرض كتاباته في الدفاع عن الإسلام بما فيها "تبيين الكلام في تفسير التوراة والإنجيل على ملة الإسلام"، و"الخطبات الأحمدية"، وبالتالي يأتي ذكر المشاكل التي واجهها السير سيّد أحمد خان في تأليف هذا الكتاب، وكذلك عرض المؤلّف ميزات الكتاب، وثناء العلماء عليه.

أما الباب الخامس فهو في جهود السير سيّد أحمد خان في مجال التعليم، وتربية الأولاد، ومواجهته معارضة شديدة، وتأسيس الجمعية العلمية، وتأسيس الكلية الإسلامية الإنجلو الشرقية، وأهداف الكلية، والمؤتمر التعليمي الإسلامي، وأهداف المؤتمر.

تأثير حركة الشاه ولي الله الدهلوي في تكوين شخصيته: لقد تأثر السير سيّد أحمد خان بحركة الشاه ولي الله الدهلوي تأثرًا بالغًا، واستفاد منها استفادة تامة في البداية. وقرأ بعض كتب الأحاديث النبوية على الشيخ مخصوص الله بن شاه رفيع الدين، وأكب على المطالعة والدراسة متوجهًا إلى كتب الشاه ولي الله الدهلوي بدقة وإمعان خاصةً كتاب "حجة الله البالغة" لكي ينال فكرته الرئيسية، ويكوّن فكرته على أساسها حسب احتياجات الوقت ومتطلباته، ويسلك مسلكه ويتبع خطاه في أمور شتى. (المصدر نفسه، ص 49)

آثاره العلمية والأدبية: قدمّ المؤلف تفاصيل أسرة السير سيّد أحمد خان، وتعليمه، ونشاطاته، وبالتالي ركّز تركيزًا تامًا على آثاره العلمية والأدبية وقام بتعريف مؤلفاته، وبعضها كما يلي:

- جام جم: أعدّه السير سيّد أحمد خان باللغة الفارسية، وتم نشره في عام 1940م بمدينة أكبر آباد، وجاء فيه تراجم ثلاثة وأربعين ملكًا من ملوك دلهي.
- انتخاب أخوين: ألّفه في نفس الفترة، وبيّن فيه قواعد القضاء والمحكمة.

- جلاء القلوب بذكر المحبوب: كتبه سيّد أحمد خان حول شمائل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسيرته المطهرة، وأصحابه الكرام، وأسلحته، ومعجزاته، وحجة الوداع، واعتمد في تأليفه على كتاب "سرور المحزون" للشاه ولي الله الدهلوي، و"مدارج النبوة" للشيخ عبد الحق المحدث الدهلوي، ونشر ذلك في مدينة دلهي في عام 1843م.
- كلمة الحق: كتب سيّد أحمد خان هذه الرسالة باللغة الأردية في الرد على من يظن أنه لا بد من بيعة الإصلاح والتربية، ولا يتبع الشريعة الإسلامية، ويفعل ما يشاء ولو ضد الكتاب والسنة. وتم تأليف هذه الرسالة في عام 1839م. وكذلك ألقى المؤلّف ضوءا على مؤلفاته الأخرى العلمية والأدبية. (المصدر نفسه، ص 59)

نبذة عن اللغة الأردية: قد بحث المؤلّف دور السير سيّد أحمد خان في مجال اللغة الأردية، وقبل ذلك تمهيدًا للبحث أورد معلومات قيمة عن اللغة الأردية وأفاد أنّ أوّل من كتب باللغة الأردية في مراحلها الابتدائية هو مسعود سلمان (المتوفى عام 1121م) الذي يعدّ من أوائل الأدباء الذين استخدموا هذه اللغة، وله إسهام كبير في تطويرها وترويجها وتوسيع نطاقها.

وبالتالي استلفت المؤلف انتباه القارئ إلى الذين ساهموا مساهمة قيمة في تطويرها بمن فيهم خواجه فريد الدين مسعود شكر غنج (المتوفى عام 1265م)، الذي اتخذ مدينة "باك بتن" بولايه بنجاب مركزًا لدعوته وتبليغه، وله كتابان "راحة القلوب" و"أسرار الأولياء"، وهما خير دليل على مقدرته وبراعته العلمية والثقافية. وفي هذا السياق جاء ذكر الملك المغولي شاهجهان أنه كان أول ملك اتخذ اللغة الأردية لغة رسمية للدولة بدلًا من اللغة الفارسية، وعكف على نشرها بوسائل مختلفة بما فيها أنه أنشأ سوقًا للرجال والنساء حيث فرض التكلم والتخاطب باللغة الأردية لكي تنمو وتزدهر. (المصدر نفسه، ص 92-93)

دوره في تطوير اللغة الأردية: ألقى المؤلّف ضوءا على دور السير سيّد أحمد خان في تطوير اللغة الأردية وهو يوضح أن كانت له جولة وصولة في اللغة الأردية التي كانت

من قبل كاللغة العربية بين المسلمين الهنود في الظلام والعشق والغرام، ويوجد فيها التكلف والصناعة فحوّلها سيّد أحمد خان إلى آفاق واسعة بعد إدخال الموضوعات السياسية والاجتماعية والدينية والتاريخية والأدبية بأسلوب متين شيّق يتسم بالقوة والسلامة والصفاء والسعة وغزير المعاني، ويخلو من التصنع والتكلف. وقد بدأ السير سيّد أحمد حياته في اللغة الأدية كشاعر ولكنه سرعان ما انتقل إلى النثر، وفي عام 1840م ألّف كتابًا شاملًا بعنوان "قواعد اللسان الأردو" حدّد فيه الأساليب والقواعد بشكل جيد. وحقّق و رتّب كتبًا مهمة بما فيها "آئين أكبري" و"تاريخ فيروز شاهي" و"تزك جهانغيري". (المصدر نفسه، ص 97 و101)

واعترف العلامة شبلي النعماني بفضله في الأدب الأردي حيث قال: "طالما كان النزاع بيني وبين السير سيّد أحمد خان شديدًا في آرائه الدينية، وطالما فنّدت آراءه، ومع هذا لا أنكر فضل أسلوبه الممتاز الذي استخدمه في شرح أفكاره، فكان أسلوبًا رائعًا، منقطع النظير، مملوءا بالفكاهة الحلوة والتنادر الطريف". وقد يمكن تقييم دور السير سيّد أحمد خان في مجال اللغة الأردية بما رأى الدكتور رشيد أحمد صديقي أنّ السير سيّد لو لم يقم بتوثيق الروابط بين النثر الأردي وبين حركة عليجراه لما وصلت اللغة الأردية الجديدة إلى الذروة والكمال في فترة قصيرة. (المصدر نفسه، ص 100-101)

تهذيب الأخلاق: أصدر السير سيّد أحمد خان مجلة باسم "سيد الأخبار"، ثم "تهذيب الأخلاق" في ديسمبر 1871م، وعالج فيه الموضوعات التي لم تكن تعالج من قبل، ونجح في ضمّ كوكبة من الأدباء والكُتّاب المعروفين آنذاك للكتابه فيها بمن فيهم: "مهدي علي خان"، و"جراغ علي"، و"ألطاف حسين حالي" الذين كتبوا مقالات في السياسة والدين والتعليم والاقتصاد والأخلاق والعلم والأدب. وبذلك بدأ الأدب الأردي يشقّ طريقه إلى التقدم والازدهار. (المصدر نفسه، ص 97 و102 و152)

وقد كتب السير سيّد أحمد خان في هذه المجلة مقالات كثيرة وهو يناقش فيها

موضوعات مهمة بما فيها: "العادات والتقاليد" و"تدهور المسلمين" و"الدين والمجتمع" و"علاقة الدين بالدنيا" و"الوحدة القومية" و"الكرامة" و"حب الوطن" و"التكامل" و"الرأي الحر والرأي غير السديد" و"كلمة الحق" و"حماية الأسر المسلمة من الضياع والفساد" و"رعاية الأطفال الأيتام" و"أوضاع المرأة الهندية" و"عدم زواج بالأرامل" و"حقوق المرأة" و"طريقة تناول الطعام" و"المعاملة الطيبة مع أصحاب الديانات الأخرى" و"المعارضة" و"التعصب" و"التزمت" و"النفاق". (المصدر نفسه، ص 103)

تفسير القرآن هو الهدى والفرقان: في سياق الأفكار الدينية للسير سيّد أحمد خان جاء ذكر هذا التفسير الذي كتبها باللغة الأردية عام 1877م، ولكنه لم يتسنّ له إتمامه، وقدّم المؤلف دراسة لهذا التفسير وعرض بعض المبادئ والأصول لعمليته التفسيرية، وكذلك ذكر بعض آراء نادرة للسير سيّد أحمد خان بما فيها:

- رفضه ولادة المسيح عليه السلام بدون أب، وقيام يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في بطن السمك.
- اعتقاده أنّ الملائكة والشياطين ليست أشخاصًا متميزة بل المراد بالملائكة القوى الملكية والمراد بالشياطين القوى البهيمية، فإنها موجودة في وجود الإنسان ليست خارجة عنهم.
- اعتباره الجنة والنار غير موجودتين في الخارج، بل المراد تخييل الراحة والعذاب بقدر فهم الإنسان.
- لا يجوز أخذ الربا من الفقراء والمساكين ولكن يجوز الربا من الأمراء والحكام (المصدر نفسه، ص 124-126)

ولا يخفى على من له إلمام بالعلوم الشرعية أنّ هذه الآراء وأمثالها تتعارض مع كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ولذلك فسقه علماء عصره وزندقوه، ونرجو أنه كان قد تاب عن كل ذلك قبل وفاته.

وقد أوضح المؤلّف أنّ السير سيّد أحمد خان تناول في تفسيره منهجًا جديدًا وفكرًا حديثًا متأثرًا بالثقافات الغربية وذهب إلى مكان بعيد لا يمكن لأيّ إنسان الاختيار منه، وهاجم على العقائد الإسلامية هجومًا عنيفًا، وأنكر القضايا الأساسية للإسلام. من أجل ذلك لم تتطور آراؤه في الهند وخارجها. (المصدر نفسه، ص 127) ولا شك أنّ دراسة المؤلّف لعمليته التفسيرية تجعل القارئ مطلعًا على لبّ لباب الفكرة القرآنية للسير سيّد، وتُغنيه عن دراستها.

الخطبات الأحمدية: هذا الكتاب من أهم إنجازات السير سيد أحمد خان العلمية والفكرية، وقد أكد المؤلف على أنه يختلف تمامًا من الكتب الأخرى حول موضوع السيرة النبوية لأنّ هدف السير سيّد أحمد خان فيه لم يكن سرد الأحداث ووقائع السيرة النبوية سردًا قصصيًا أو زمنيًا بل إنما هدفه هو دحض الشبهات والاعتراضات التي أثارها المستشرق "وليام ميور" حول الإسلام والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإبطال مزاعمه السيئة والفاسدة. وفي الحقيقة صدور كتاب "حياة محمد" لهذا لمستشرق هو الدافع الأساسي لتأليف كتاب "الخطبات الأحمدية"، وحاول السير سيّد أحمد خان فيه أن يثبت بالأدلة الساطعة والبراهين القاطعة أنّ الإسلام فيه فوائد جمة للإنسان والإنسانية وأنّ النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو القدوة والمثل العليا للقيم الأخلاقية، وكذلك أثبت أنّ الإسلام ليس دينًا رجعيًا ولا خرافيًا ولا مضادًا للتقدم والعلم والحضارة. (المصدر نفسه، ص 132)

جهوده في التعليم: كان أول ما بدأ السير سيّد أحمد خان خطته في التعليم أنه أسّس "جمعية علمية" (Scientific Society) في مدينة "غازيفور" حيث كان قاضيًا عام 1862م، وكان الغرض منها نشر الآراء الحديثة في التاريخ والاقتصاد والعلوم، وترجمه أهم الكتب الإنجليزية إلى اللغه الأردية، وكان يرى أنّ تعلم هذه العلوم باللغه الإنجليزية لا يعطي فائدة تامة بل يفيد ذلك بعد نقلها إلى لغة البلاد.

وسنحت له فرصة لزيارة إنجلترا مع ابنه محمود عام 1869م، فسافر إليها ومكث بها طويلًا، واطلع على الحضارة الإنجليزية ونظام تعليمها من خلال زيارات الجامعات والمعاهد العلمية مثل كامبريدج، وأوكسفورد، وعاد إلى الهند عازمًا على نشر التعليم الحديث بين مسلم الهند. فأصدر مجلة "تهذيب الأخلاق" لنشر أفكاره وآرائه عن التعليم والحضارة الغربية الحديثة. وبالتالي كوّن لجنة خاصة بالتعليم باسم "لجنة تعزيز تعليم مسلمي الهند" ولم يزل يبذل جهوده في هذا الصدد إلى أن تمّ تأسيس مدرسة علي كره كبداية نحو تأسيس الكلية، وافتتحت المدرسة في 24 مايو 1875م. وقد أورد المؤلّف قائمة لأهداف الكلية ومنها كالآتي:

- تزويد المسلمين بالثقافة الغربية والشرقية بدون تعصب.
- الاهتمام بحياة الطلبة الاجتماعية لكي يصونهم من ضوضاء المدن ومفاسدها، فيطمئن الآباء حتى يرسلوا أبنائهم إليها على أنهم في بيئة صالحة لخلقهم.
- العناية بنظام الكلية لتربية العقل وتربية الجسم وتهذيب الخلق معًا، وبعبارة أخرى يكون الغرض منها التربيه والتعليم فقط (المصدر نفسه، ص 149 و153)

خاتمة: وعقب دراسة هذا الكتاب يتوصل القارئ إلى أنّ المؤلّف الدكتور منظر عالم قد أحاط بحياة السير سيّد أحمد خان من جوانب شتى، وقدّم دراسة موضوعية لنشاطاته الاجتماعية، وخدماته التعليمية والتربوية، وآرائه وأفكاره. فهذا الإنجاز عطاء ثريّ للأوساط العلمية والأكاديمية، ومصدر مهم لمن يدرس ويبحث عن حياة السير سيّد أحمد خان وآثاره، وقد انضافت به إضافة قيّمة إلى المكتبة العربية والعلمية والحضارية، وينفتح به الباب للقرّاء العرب للاطلاع على علم شامخ من أعلام الهند، ومساعيه وإنجازاته. والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.